

د . جورج قنارح :
أبو هلال المسكرووشعريه

نسيبة من « الشرق » ، السنة ٥ ، الأعداد ١-٤ ،
حزيران - أيلول ، ١٩٧٤ ، ص ٣٧ - ٤٦

جورج فنازع ابو هلال العسكري وشعره

اما في كتابه التلخيص (٤) فيشير الى الاصل الفارسية لكثير من المفردات التي دخلت اللغة العربية . المعلومات المتوفرة لدينا عن حياة ابي هلال ضئيلة وغير مفصلة . وبدون الدخول في تفاصيل لا حاجة لنا بها في هذا البحث يمكننا القول ان ابا هلال ولد وقضى معظم سنى حياته في عسكر مكرم ، ودرس على ابي احمد العسكري ، وهو المحدث المشهور في الاهواز ، ثم عاش فترة من حياته يتجر بالثياب ، وهو يرى ان هذه المهنة لا تليق باديب اريب مثله ، وقضى فترة اخرى في التأليف ، اذ اربى عدد ما كتبه من الكتب والرسائل على العشرين . اما التفاصيل الاخرى في حياة ابي هلال فهي مجرد تخمينات غير واضحة المعالم ، زادها تعقيدا الخلط الواضح بين شخصيتي ابي هلال العسكري واستاذه ابي احمد العسكري ، اذ كان كل منهما يسمى «الحسن بن عبد الله العسكري» - وللتمييز بينهما لقب ابو هلال بالاديب ، وابو احمد باللغوى ، وقد اشار الى ذلك خليل الدين الصفدى في مقدمة كتابه الوافي بالوفيات (٥) ، وما زلنا نرى اثر ذلك فيما كتبه جرجي زيدان (تاريخ ادب اللغة العربية) ويوسف اليان سركيس (معجم المطبوعات العربية) وخير الدين الزركلى (الاعلام) ، في العقود الاخيرة في اثناء التعرض لترجمة ابي هلال او لمؤلفاته .

اشتهر ابو هلال العسكري في تاريخ الادب العربي بكونه ناقدا وبلاغيا وضع اراءه في كتاب الصناعتين : الكتابة والشعر الذى اصبح مصدرا مهما من مصادر دراسة النقد والبلاغة في القرن الهجرى الرابع . ولعلنا

(٤) ابو هلال العسكري : التلخيص في معرفة اسماء الاشياء . تحقيق الدكتور عزة حسن ، دمشق ١٩٦٩ - ١٩٧٠ . انظر مثلا : ١ : ٢٠٥ ، ٢٠٧ ، ٢٠٨ ، ٢٢٨ ، ٢٨٨ ، ٢٩٧ ، ٣٢٠ ، ٣٣٣ .

(٥) خليل الدين الصفدى : الوافي بالوفيات ، تحقيق هـ . ريتز ، س . ديدرنيج ، احسان عباس ، الطبعة الثانية (قيسبادن) ١٩٥٣ - ١٩٦٩ ، ١ : ٣٥ - ٣٦ .

ابو هلال الحسن بن عبد الله العسكري هو احد اعلام النقد والبلاغة في القرن الهجرى الرابع ، فقد ولد في العقود الاولى لهذا القرن - وليس لدينا ما يمكننا من تحديد سنة ميلاده ، وتوفي بعد سنة ٤٠٠ هـ - على الأرجح . اما نسبته «العسكري» ، فقد اتفق الذين ترجموا له على انها لمدينة «عسكر مكرم» في الاهواز ، وهي احدى مدن الامصار في عصر الفتوحات الاسلامية ، انشأها زمن الحجاج بن يوسف مكرم الباهلى (١) .

كان ابو هلال العسكري فارسي الاصل ، يدل على ذلك الاسم الفارسي «مهران» الذى يظهر في سلسلة نسبه ، وبشيت ذلك اعتزازه هو بهذا الاصل ، فقد قال من ابيات يفخر فيها بنفسه :

له شرف في ال ساسان باذخ

وذكر باطراف البسيطة شائع (٢)

وقال ايضا :

وقد نمتى امجاد جحاجة

من نجل ساسان نزهو نجل ساسان

هم الكواكب في اطراف داجية

او العنان على ائباج اعنان (٣)

وتظهر معرفة ابي هلال للغة الفارسية في كتابه ديوان المعاني (٢ : ٨٩) حيث يقارن بين الامثال العربية والفارسية ، وفي كتابه الصناعتين (٧٢ - ٧٣ ، ٢٥٣) حيث يشرح معنى «اليرندج» وهو الجلد الاسود - و «الحرباء» معتمدا على الاصل الفارسي لهاتين الكلمتين ،

(١) انظر مادة «عسكر مكرم» . دائرة المعارف الاسلامية . الطبعة الثانية . لندن . سنة ١٩٥٤ وما بعدها .

(٢) ابو هلال العسكري : ديوان المعاني (القاهرة ١٣٥٢) . ١ : ٨٥ .

(٣) المصدر السابق ، ١ : ٨٩ .

ملاحظة قلة الرجز فيها . وهو في هذه الاعراض العديدة التي طرقها لم يخرج على الاطار التقليدي شكلا ومضمونا خصوصا في الاعراض الكلاسيكية كالفخر والمدح والهجاء . اما في وصف الشراب واصناف المأكولات والفواكه والرياض فقد اكثر ابو هلال وجاء باشياء طريفه كتوله :

ما ان وطننا فناء زيد
حتى اتتنا الكؤوس عجلي
وقال : تختار صوت ناي
فقلت اختار صوت مقل (٩)

وقوله في وصف الرقاق :

وخيز بايدي الخازين كأنه
تراس تعاطيها الجنود جنود
واطعمة حلت بساحتها المنى
اذا جاء من ارواحهن يريد
وضمت الى الحلواء فيه فواكه
عليهن اهواء النفوس وفود

x x x

لدراسة شعر ابي هلال العسكري اهمية خاصة لسببين ، اولهما قلة المعلومات المتوفرة لدينا عن حياته الخاصة ، وشعره في هذا المجال يساعد على استخراج معلومات لم ترد في المصادر الاخرى ، وثانيهما ان ابا هلال كان ناقدا ، ودراسة شعره تساعدنا على معرفة العلاقة بين ارائه النظرية في الشعر وتطبيق هذه الاراء تطبيقا عمليا اثناء نظم الشعر .

حياة ابي هلال الخاصة من خلال شعره

عرف عن ابي هلال انه كان يتبرز - اي يبيع البز من الثياب - وقد اشار هو الى ذلك في ابيات له منها :

اذا كان مالي مال من يلقظ العجم
وحالي فيكم حال من حاك او حجم
فاين انتفاعي بالاصالة والحجي
وما ربحت كفى من العلم والحكم

(٦) ابو هلال العسكري : جمهرة الامثال ، تحقيق محمد ابو الفضل اليراهيم وعبد المحمد نظامش (القاهرة ١٩٦٤) ، ١ : ٢٢٧ .

لا نبالغ اذا قلنا ان شهرته قائمة على هذا الكتاب رغم انه الف كتبنا قيمة اخرى ضاع بعضها ووصلنا بعضها الاخر ، مثل ديوان المعاني وجمهرة الامثال والتلخيص في اللغة والفروق اللغوية وشرح ديوان ابي محجن التنفي ، وغيرها (٦) .

ومن بين كتب ابي هلال العديدة التي تذكرها مصادر ترجمته ديوان شعره ، الذي ضاع مع ما ضاع من كتبه وهذا يعني انه الى جانب كونه ناقدا أو مؤلفا ، فهو شاعر له ديوان شعره الا أن كل ما كتب عن ابي هلال في المصادر القديمة لا يتعرض الا لكونه مؤلفا وناقدا بلاغيا ، وعلى ذلك تناوله البحثة المعاصرون كمؤلف ناقدا ايضا ، ولم يتعرضوا له كشاعر .

ورغم ضياع ديوان ابي هلال فلدينا كمية لا بأس بها من شعره ، منثورة في كتبه المختلفة ، خصوصا في الصناعتين وديوان المعاني وجمهرة الامثال . وقد استشهد بشعره غيره من المؤلفين ، وهذا يدل ولا شك على انهم اعتبروه شاعرا مجيدا ، ويكفي ان نذكر ان مؤلف دمية القصر قد ترجم له مع «شعراء الرى والجمال واصفهان وفارس وكرمان» ، كما استشهد عبد القاهر الجرجاني بببيتين من شعره (٧) واورد النويري في نهاية الأرب مقطوعات كثيرة من شعر ابي هلال نقلها كما يبدو من ديوان المعاني وليس من ديوان شعر الشاعر (٨) .

معظم ما تبقى من شعر ابي هلال مقطوعات قصيرة ، اما القصائد الكاملة فقليلة جدا . وقد تناول شاعرنا موضوعات مختلفة كالفخر والمدح والهجاء والغزل ووصف الشراب واصناف المأكولات والنواكه والظواهر الطبيعية المختلفة ، والطبيعة الساكنة والمتحركة وغير ذلك . اما الاوزان التي نظم عليها فهي الاوزان التقليدية - مع

(٦) لكتاب هذا المقال بحث مفصل عن مؤلفات ابي هلال العسكري سينشر قريبا في مجلة ARABICA (باريس) .

(٧) عبد القاهر الجرجاني : اسرار البلاغة ، تحقيق محمد ريتسر (استنبول ١٩٥٤) ، ص ٢٦٤ .

(٨) لم يذكر الشعالي ابا هلال في يتيمة الدهر ، اما في تتمة اليتيمة (طهران ١٣٥٣) ، فقد ورد ما يلي تحت رقم ٢٠٢ (٢ : ١٠٩ - ١١٠) :

ابن هلال العسكري : انشدت له من قصيدة :
شقائق من تحت اغصان بان كمثل العرايس من تحت كله
ودجلة زرقاء مثل السماء وفيهسا زبازبها كالهله
وليس من المستبعد أن يكون ابن هلال العسكري هو ابو هلال نفسه . وسوف يتضح الامر عندما نعرض على هذين البيتين في مصدر اخر .

ومن ذا الذي في الناس يبصر حالتي
فلا يلعن القرطاس والجبر والقلم

الدمشقي والسري الرفاء الموصلي ؟ ام انه استطاع
- في فترة ما - ان يلتحق باحد دواوين الكتابة
ويضمن لنفسه حياة ناعمة في ظل امير من الامراء ؟

وقال ايضا :

أما الجواب عن السؤال الاول فنجد في شعر
ابى هلال نفسه حيث تكثر الاشارات الى حياة راغبة
هنيئة ، فهو يدعو الندماء الى بيته حيث الطعام الجاهز
والبيد والسرور :

كبت استعجل الندامى
والنار تستعجل القصورا
وقد اتانى الغلام يسعى
بارغف تشبسه البدورا
وعندنا قهوة شمول
لو قطعت صيرت شذورا
تكون قبل المزاج نساارا
فانقلبت بالمزاج نسورا
فانهض الى سرعة النسا
نشر على نفسك السرورا (١٣)

كذلك يصف جني الشمس صباحا ، والخزعة التي
تزين داره والقبحة التي اهديت اليه (١٤) . وفي كثير
من التشبيهات الجميلة يصف انواعا عديدة من
المأكولات والفواكه والطيور ومجالس الشرب وغيرها .
وبالاضافة الى ذلك فقد بقى بيت واحد من احدى
قصائد ابى هلال يدل بوضوح على انه كان غنيا ،
ثم - ونسبب ما - صودرت امواله ، فصار يرجو
اعادتها له ، وهذا البيت هو - كما يبدو - من
قصيدة قالها استرضاء لمن صادر امواله :

سيمقضي لي رضاك برد مالي
ويعمد حسن رأيك كشف ما بي (١٥)

من هنا يمكن القول ان تدمير ابى هلال في شعره
لا يعكس سوى ازمت اقتصادية مر بها لفترات
قصيرة ، وانه - على الاغلب - كان يعيش حياة
اقرب الى الغنى منها الى الفقر .

× × ×

جلوسى في سوق ابيع واشترى
دليل على ان الانام فرود
ولا خير في قوم تذل كراءهم
ويعظم فيهم نذلهم ويسود
ويهجوهم عنى رثائة كسوتسى
هجاء قبيحا ما عليه مزيد (١٠)

وقد اعتمد الذين ترجموا له على هذه الابيات ليدلوا
على فقره وسخطه على الدهر الذي حرمه من تحقيق اماله .
فهذا الباخري يقول ، بعد ان استشهد بالابيات
السابقة وغيرها :

بلغنى ان هذا الفاضل كان يحضر السوق
وتحمل اليه الوسوق ، ويحلب من در الرزق
ويتمرى بان يبيع الامتعة ويشترى ، فانظر
كيف يحدو الكلام ويسوق ، وتأمل هل غض
من فضله السوق (١١) .

بالاضافة الى الابيات السابقة وتعليق الباخري
عليها ، هناك ابيات اخرى لابي هلال يشكو فيها
الفقر :

لو تم شيء من الدنيا لذى ادب
لانضاف مال الى علمى وادابى
فتم جاهى عند الناس كلهم
وطاب عيشى في اهلى واصحابى
عز الكمال فلا يحظى به احد
فكل خلق - وان لم يدر - ذوعاب (١٢)

ولنا ان نتساءل الان : اكان ابو هلال فقيرا حقا -
كما توحي شكواه المتكررة في اشعاره ؟ ثم هل كان
تاجر ثياب طيلة حياته حتى قارنه الباخري بالسوأء

- (١٠) يافوت : معجم الادباء (القاهرة د.ت.٥) ، ٨ : ٢٦١ - ٢٦٢ .
(١١) الباخري : دمية القصر ، تحقيق عبد الفتاح محمد الحليو
(القاهرة ١٩٦٨) ، ١ : ٥٢٨ - ٥٢٩ .
(١٢) ديوان المعاني ١ : ١٤٢ ، وانظر ايضا ٢ : ٢٠٤ .

- (١٣) المصدر السابق ، ١ : ٢٩٥ .
(١٤) المصدر السابق ، ٢ : ٤٤ ، ٢٦ ، ١٣٩ .
(١٥) الصناعتين ، ٤٦٨ .

العديدة من كتاباته هو ، خصوصا في الفصل الذي عقده «للمديح على مذهب الكتاب» في ديوان المعاني حيث عد نفسه واحدا منهم واورد شيئا من رسائله . وعلى ذلك فلنا ان نسأل : من هو الامير الذي خدمه هذا الشاعر الكاتب ؟

الصاحب بن عباد

يرى الدكتور زكي مبارك (١٦) ان ابا هلال كان على علاقة بالصاحب بن عباد الوزير البويهى ، مستدلا على ذلك بما جاء في كتاب الصناعتين من اطراء لمقدرة الصاحب الادبية ، وبالاكتثار من الاستشهاد باقواله ، ثم يقول ابى هلال الصريح : «وانشدت الصاحب بن عباد :

كانت سراة الناس تحت اظله

فسبقني وقال : فغدت سراة الناس فوق سراته» .

ورغم اننا لا نقبل الاطراء على المقدرة الادبية او الاكتثار من الاستشهاد كهجج مقنعة ، فان نظرية زكي مبارك عن وجود علاقة بين ابى هلال والصاحب تبقى صحيحة - على ما يبدو . ففي شعر ابى هلال ابيات يذكر فيها الصاحب واسمه ولقبه . يقول ذاكرنا «اسماعيل» :

اغرة اسماعيل ام سنة البدر

وفيض ندى كفيه ام باكر الفطر (٢٠)

ويقول في قطعة اخرى :

تشكو الزمان وذاك من لذاته

وبقاء اسماعيل من حسناته . .

كأني الكفاءة برأيه وعزيمته

كزمانه بخطوبه وهيبته (٢١)

اما بالنسبة للسؤال الثاني فلا تشير جميع المصادر التي ترجمت له الى انه شغل منصبا حكوميا، الا ان بعض كتاباته الثرية توحى بأنه كان يعمل عند بعض الرؤساء ، فهو يقول مثلا :

والله يعلم انى اخدمه بالضمير خدمة لسو
تصورت له لرأها الرائي روضا مطورا ووشيا
منثورا (١٦) . . .

وفي الفصل الذي عقده «للمديح على مذهب الكتاب» يورد قوله في احدى رسائله :

من حل محل سيدنا في شرف المنصب وطهارة
العنصر وزكاء الاصل ونماء الفسرع وسنسي
الحسب وسري النسب مع الشيسم الطاهرة
والكارم المتظاهرة كثررت الرغبة اليه وخيمت
الامال بين يديه (١٧) . .

كذلك يورد قوله شاكرا ذلك الرئيس الذى امر
- كما يبدو - باعطائه مبلغا من المال يكفل له الحياة
الامنة :

وتأملت التوقيع في معنى المعيشة فتصور لى
الغنى بصورته ، وقابلني بصدق مخيلته ، وعرفت
ان الدهر قد غضت جفونه ، ونامت عيونه ،
وتنحمت عن ساحتي خطوبه ، وهذه نعم اعيا
بذكرها فكيف اطمع في اداء شكرها (١٨) . . .

يبدو واضحا من هذه الاقوال ان ابا هلال كان يشغل منصبا ما ، ولكن من المتعذر معرفة الرئيس الذى خدمه او الفترة التي قضاه في الخدمة ، ولكن من المؤكد انه اعد نفسه لكي يصبح كاتباً عند احد الامراء ، يدلنا على ذلك معرفته لاصول الكتابة وبحثها في كتاب الصناعتين بشكل يعكس اعتزازه بثقافته التي اهلته لان يولف في هذا الفن ليرشد الكتاب الناشئين، وكذلك اقتباساته

(١٦) زكي مبارك : النشر الفني (القاهرة ١٩٥٧) ، ٣ : ٩٦ - ٩٧ .

(٢٠) الصناعتين ، ٤١٣ .

(٢١) المصدر السابق ، ٤٨٣ .

(١٦) ديوان المعاني ، ٢ : ٢٥١ .

(١٧) المصدر السابق ، ٢ : ١٠٢ . وانظر كذلك من ٩٨ .

(١٨) المصدر السابق ، ٢ : ١٠٢ .

وفي قطعة ثالثة يهنيء «أبا القاسم» بالنصر :

نصرت على الأعداء فليهنك النصر

ودانت لك الدنيا وذل لك العمر . .

أبا قاسم فخرا على المجد والصلاح

فإن العلا روض وانت بها زهر (٢٢)

الأغنياء وخدم أكثر من رئيس واحد . ومع عدم وجود دلالة واضحة على أنه عمل كاتباً لوزير عظيم كالصاحب ابن عباد أو معاصره ابن العميد ، فقد تكون مقتبساً من رسائله وإشاراته إلى رئيسه برهانا على أنه عمل كاتباً - ولكن عند أحد حكام الأمصار .

في حديثه عن حياة أبي هلال الخاصة قال الدكتور بدوي طبانه :

أما حياته الخاصة - ونعني بها حياته الأسرية - فلم يصل إلينا طرف منها لا فيما كتبه الكاتبون عنه ، ولا في شعره الذي تسنى لنا الاطلاع عليه . لم نعرف له قصة زواج ، ولم نعرف ما أنجب من أبناء ، وهذا ما يرجح لنا أنه لم يبن بزوجة ولم ينجب ولدا ، ولعل هذا هو السر في برمه بالحياة ويأسه منها ، إذ لم يجد الشريك الذي يشكو إليه بثه ، فيستجيب إليه ويسرى عنه (٣٠) .

أن عدم ذكر الزوجة أو الأبناء في كتب التراجم ليس دليلاً قاطعاً على أن المترجم له لم يبن بزوجة . ويبدو أن استنتاج الدكتور طبانه قائم أساساً على ما جاء في كتب التراجم هذه والنتف اليسيرة التي وردت هناك من شعره . ولكننا إذا قرأنا شعر أبي هلال في المراجع المختلفة نصل - ولا شك - إلى عكس الاستنتاج السابق . فقد ذكر مثلا أن أفضل علاج للمرأة الفارك - وهي التي تكره زوجها - هو الطلاق . ومن الواضح أنه يتحدث هنا عن نفسه :

قد آذن الخليل بانطلاق

فخل عنك شدة الأشفاق

لا تعترضك حمقة العشاق

وداؤ من ملك بالفراق

فليس للفارك كالطلاق (٣١)

وقد نستدل من أبيات أخرى أن عدد أفراد عائلته كان خمسة . فقد وصف في سبعة أبيات قرى النمل التي تملأ بيته وختمها بأوله :

- (٢٨) المصدر السابق ، ٤٨٥ .
(٢٩) المصدر السابق ، ٤١٦ .
(٣٠) بدوي طبانه : أبو هلال العسكري ومقاييسه البلاغية والنقدية (القاهرة ١٩٦٠) ، ص ٢٤ .
(٣١) جمهرة الأمثال ، ١ : ٤٩ . وانظر أيضا ٢ : ٥٣ .

في الأبيات السابقة ذكر أبو هلال اسم الصحابي وهو اسماعيل ، ثم قرنه بلقبه - كافي الكفاة - ثم بكنيته - أبي القاسم . ولعل هذا يكفي للاعتقاد بأن المدح في كل المقتبسات السابقة هو الصحابي بن عباد .

بالإضافة إلى ذلك فقد زار الوزير المذكور مدينة عسكر مكرم سنة ٣٧٩ هـ لمقابلة أبي أحمد العسكري استاذ أبي هلال ، ومما لا شك فيه أن أبا هلال كان بصحبة استاذة في ذلك الحين ، يدلنا على ذلك قوله : «سمعت كافي الكفاة يقول لأبي أحمد الحسن بن عبد الله بن سعيد» (٢٣) . وقد اغدق الصحابي على أبي أحمد العطايا بعد هذه المقابلة «وادر على المتصلين به ادرارا كانوا يأخذونه إلى أن توفي - وبعد وفاته أيضا فيما اظن» (٢٤) .

ولكن مدائح أبي هلال للصحابي لا تدل بوضوح على أنه عمل في خدمته . لذلك يمكن أن نراها تعبيرا عن شكر الشاعر للوزير على العطايا التي نعم بها لكونه أحد المتصلين بأبي أحمد ، وقد تؤخذ أيضا على أنها تلميح خفي للأمال التي علقها الشاعر على الوزير والتي لم يشر إليها صراحة .

وفي مدائح أبي هلال ذكر للعديد من المدوحين مثل يحيى (٢٥) ، ابن عيسى (٢٦) ، ابن أحمد (٢٧) ، ابن علي (٢٨) ، وبني زيد (٢٩) وغيرهم ، وله مدائح عديدة لا يذكر فيها - أو فيما بقي منها - اسم المدح ، ولكن كثرتها وتعدد الأسماء الواردة فيها تجعلنا نبيل إلى الاعتقاد بأنه تمتع بعطايا كثيرة من

(٢٢) ديوان المعاني ، ١ : ٤٣ - ٤٤ .

(٢٣) المصدر السابق ، ١ : ٣٤٩ .

(٢٤) دجيم الأدباء ، ٨ : ٢٥١ .

(٢٥) الصناعتين ، ٤٨٤ ، ديوان المعاني ، ١ : ٦٩ ، ٧٤ ، ٧٥ .

(٢٦) الصناعتين ، ٤٨٤ ، ديوان المعاني ، ١ : ٤٢ .

(٢٧) الصناعتين ، ٤٨٣ .

ففى كل بيت من بيوتى قرية

نضم صنوفا منهم وفنوننا

فيا من رأى بيتا يضيق بخمسة

وفيه قريات يسعن مئينا (٣٢)

ونستشف من مقطوعة اخرى ان احد ابناؤه كان عاقا .
ففى شرح المثل العربى : «العقوق تكلم من لم يشكل»
يقول ابو هلال :

«وذلك ان الوالد اذا فقد بر الولد فكأنه قد تكلمه ،
والفرس تقول : الموت والغيبة سواء . وقلت :

اذا ما استهر على هجره

فجمل التفكير فى امره

هب الموت عاجله بغتة

وغيبه القبر فى قعره

فسيان من غاب عن اهله

ومن سكن التراب فى قبره» (٣٣)

من غير المعقول طبعا ان يكون ابو هلال قد نظم
هذه الابيات لتناسب شرح المثل المذكور . انه يتحدث
ولا شك عن تجربته الشخصية مع احد ابناؤه . وقد
اعطاء شرح هذا المثل فرصة للاقتباس من شعره - كما
يفعل فى كل مناسبة مواتية .

× × ×

كان ابو هلال - كما ذكرنا سابقا - تاجر ثياب ،
وكان عليه لذلك ان يقوم برحلات تجارية . وفى
شعره اشارات الى رحلات بعيدة - برية وبحرية ،

فهو يصف رحلة بحرية قائلا :

شققن بنا تيار بحر كأنه

اذا ما جرت فيه السفين يعربه

نصعد فيه وهو زرق جهامه

فنجسب انا فى السماء نصعد (٣٤)

ويشير فى مقطوعة اخرى الى «سراة حزوى» فى شبه
الجزيرة العربية (٣٥) ، ويهجو مدينة بانياس ، بعد
رحلة غير موفقة اليها كما يبدو ، قائلا :

فى البانياس اذا وطئت ساحتها

خوف وحيف واقلال وافلاس

وكيف يطمع فى امن وفى دعة

من حل فى بلد نصف اسمه ياس (٣٦)

كما يعبر فى شعره ايضا عن حنينه لوطنه (٣٧) .

لقد رأى الدكتور بدوى طبانه ان ابا هلال لم يترك
مسقط رأسه اكثر عمره ، فنحن «لا نجد فى مصدر من
المصادر التى بين ايدينا شيئا عن تنقله او انتجاعه
بلدا اخر . . . ولا نجد فى شعره ما يدل على ذلك سوى
ذكره القصران التى قضى فيها شطرا من شبابه ، وفيها
يقول :

سقى الله لى قصرا بقصران موقنا

سحبت به فى اللهو اعطاف مئزى

كان سقيط الثلج فى جنبانه

صفائح كافور على طود عنبر» (٣٨)

ومع ان الدكتور طبانه لا يذكر مصدر هادييس
البيتين ، الا انهما يظهران ضمن ترجمة ابي هلال فى
الطبعة الاولى من دمية القصر (٣٩) ، اما فى الطبعة
الحديثة المحققة فيظهران ضمن ترجمة ابي الفضل
الجالودى (٤٠) مع اشارة المحقق الى الخط الذى حدث

(٣٥) المصدر السابق . ٢ : ١٩٠ .

(٣٦) الصناعتين . ٤٤٨ .

(٣٧) انظر ديوان المعاني . ١ : ١٩٢ - ١٩٣ و ٢ : ١٨٩ - ١٩٠ .

(٣٨) ابو ملال العسكري . ١٩ - ٢٠ .

(٣٩) الباخري : دمية القصر (حلب ١٩٣٠) . ص ١٠٢ .

(٤٠) المصدر السابق (القاهرة ١٩٦٧) . ١ : ٥٣٧ .

(٣٢) ديوان المعاني . ٢ : ١٥٠ - ١٥١ . النويرى : نهاية الارب

(القاهرة ١٩٣٥) . ١٠٠ : ١٧٦ - ١٧٧ .

(٣٣) جمهرة الامثال . ٢ : ٤١ .

(٣٤) ديوان المعاني . ٢ : ١٠ - ١١ .

في الطبعة الاولى للمدية . واستنادا الى هذا والى الابيات التي اوردناها اننا نستطيع القول ان استنتاج الدكتور طبانه هنا ايضا لم يكن دقيقا .

ابو هلال الشاعر الناقد :

ان ما يهمننا بحثه هنا هو مدى التوافق بين اراء ابي هلال النظرية في الشعر وتطبيقه لهذه الراء عمليا . واول ما يلتفت انتباهنا هو تمسكه النظرى بوحدة البيت في القصيدة حين يعتبر التضمين عيبا . والتضمين في رأيه هو « ان يكون الفصل الاول مفتقرا الى الفصل الثاني ، والبيت الاول محتاجا الى الاخير كقول الشاعر :

كأن القلب ليلة قيل يغسدى

ليليل العامرية أو يراي

قطاة عزها شرك فباتت

تجاذبه ، وقد علق الجناح

فلم يتم المعنى في البيت الاول حتى اتمه في البيت الثاني ، وهو قبيح» . (٤١)

أما من ناحية عملية فقد تمسك ابو هلال الشاعر بوحدة البيت في معظم اشعاره ، الا انه خرج على ذلك احيانا ، وكتب شعرا يشبه البيتين اللذين اترض عليهما لوقوع خبر كان في البيت الثاني . فما هو يقول - مستعملا اذا الشرطية في البيت الاول وجواب الشرط في البيت الثاني :

إذا كان مالي ما من يلقط العجم

وحال فيكم حال من حاك او حجم

فأين انتفاعي بالاصالة والحجى

وما ربحت كفى من العلم والحكم

وفي شعره امثلة اخرى شبيهة ، مما يدل على عدم التوافق التام بين النظرية والتطبيق عند ابي هلال ،

(٤١) الصناعتين : ٤٢ .

وهي ظاهرة واضحة عند غيره من الشعراء النقاد كذلك .

ويبدو عدم التوافق هذا مرة اخرى في شعر الهجاء . فمن ناحية نظرية يرى ابو هلال الناقد - كسابقه قدامة بن جعفر - ان الهجاء اذا لم يكن يسلب الصفات المستحسنة التي تختصها النفس ويثبت الصفات المستهجنة التي تختصها ايضا لم يكن مختارا . والاختيار ان ينسب المهجو الى اللؤم والبخل والشر وما اشبه ذلك . وليس بالمختار في الهجاء ان ينسبه الى قبح الوجه وصغر الحجم وضؤولة الجسم» (٤٢) .

معنى هذا ان افضل الهجاء لا يجب ان يعتمد على تعيير المهجو بعيوبه الجسدية مهما كانت ، بل ان يسلبه الصفات النفسية كالحلم والكرم وشرف المحتد وما اشبه . واذا كان شعراء الهجاء على الاغلب قد تمسكوا بهذه النظرة حتى اوائل العصر العباسي ، فان بشارا و ابا نواس ثم ابن الرومي من بعدهما ، وغيرهم الكثيرون قد خرجوا على هذا الحكم العام وجعلوا العيوب الجسدية اساسا لشعر الهجاء بحيث اصبح ترديد هذا الرأى في القرن الهجرى الرابع مجرد تمسك براء الاقدمين ، فهو لا يعكس واقع الحياة الادبية ، ولا يهدف الناقد من ذكره الى تطبيقه والتمسك به . ويبدو هذا الامر في اتجاهين . اما الاول ، فهو شعر ابي هلال نفسه ، الذي يعكس عدم تقيده كشاعر باحكامه النقدية ، فما هو يهجو جارية سوداء قائلا :

سوداء يذرف دمعها

مثل الاتون اذا وكف

وكانها من قبحها

سملح العليل على الخزف (٤٣)

ويعير احدهم بلحيتته قائلا :

ان ابا عمرو له لحية

بعيدة البعض من البعض

(٤٢) الصناعتين ، ١١٠ . وانظر ايضا : ديوان المعاني ، ١ : ٢٠٢ .

(٤٣) ديوان المعاني ، ١ : ٢٠٥ .

مضى الى السوق وعشونه
 اقام في البيت فلم يمض
 وهو اذا ما مر في سكة
 يملأها بالطول والعرض
 يدوسها الناس باقدامهم
 كأنها ارض على الارض (٤٤)

ويجعل من الصديقين او قصر القامة وما اشبه
 مواضع للهجاء ، وكثيرا ما يشبه المهجر بالكلب ثم
 يفضل الكلب عليه :

اهنت هجائي يا ابن عروة فانتجى
 علي ملام الناس من كل جانب
 وقالوا : اتهجوا مثله في سقوطه
 فقلت لهم : جربت سيفي على كلب (٤٥)

وان كنتم ناسا - وما انتم به -
 فان القروء والكلاب ملائكة (٤٦)

اما الاتجاه الثاني الذي يظهر فيه عدم تمسك ابي
 هلال بآرائه النقدية فهو في اختياره من شعر الاخرين
 في باب الهجاء من ديوان المعاني ، حيث يعد من جملة
 المختار مقطوعات كثيرة تعتمد على تعبير المهجو بعيب
 جسدي ما ، وكثيرا ما يعلق على ذلك بما يدل على
 تحمسه واعجابه ، كقوله : «ومن اعجب ما قيل في كبر
 الانف قول كتاجم» (٤٧) . ولا يدل هذا الا على ضعف
 تأثير الناحية النظرية على التطبيق العملي . واذا اعتبرنا
 ابا هلال نموذجا يمكن القياس عليه ، فمن الممكن ان
 نرى فيه مظهرا من مظاهر عدم مسابرة النظرية الادبية
 للحياة الواقعية ، او عدم تطوير النظرية الادبية بما
 يلائم الواقع .

× × ×

الاغراض التي تناولها ابو هلال في شعره والشكل
 الذي صب فيه افكاره لا تختلف عن الاغراض والقوالب
 التقليدية ، ولكنها تعكس موهبة شعرية حقة . ومع ان
 ما وصلنا من شعر ابي هلال كثير من الناحية الكمية ،
 الا اننا لا نستطيع ان نقيم شعره وشاعريته بدقة لان
 معظم ما وصلنا من هذا الشعر مقطوعات قصيرة او
 ابيات مفردة ، هي بطبيعة الحال اجود ابياته ، لانه
 اورد معظمها في ديوان المعاني ، وهو الكتاب الذي قال
 في مقدمته :

جمعت في هذا الكتاب ابلغ ما جاء في كل فن
 وابدع ما روي في كل نوع من اعلام المناسي
 واعيانها الى عراذيبها وشذاذها ، وتخيرات من
 ذلك ما كان جيد النظم محكم الرصف غير مهلهل
 رخو ولا متجعده فج (٤٨) .

وعليه ، فامامنا مقطوعات وبيات هي في نظر
 صاحبها من جيد النظم ومحكم الرصف ، ولكن رغم
 ذلك فلا نستطيع الاعتماد عليها فقط لتقييم شاعرية
 ابي هلال . يضاف الى ذلك قلة عدد القصائد الكاملة
 التي وصلتنا منه والتي تمكننا من دراسة بناء القصيدة
 عنده . ورغم ذلك فاننا نضع امام القارئ الملاحظات
 التالية :

يبدو من قصائده القليلة والكاملة التي وصلتنا ان
 المقدمة الغزلية التقليدية - او النسيب - لا تظهر فيها ،
 فهو يبدأ مباشرة بموضوع القصيدة دون مقدمات .
 هكذا يفعل في قصيدة مدح اوردها كاملة على ما يبدو ،
 وفي قصيدة فخر اقتبس معظم ابياتها ، ثم في قصيدة
 نالته اوردها ياقوت في تفضيل فصل الشتاء على غيره
 من فصول السنة (٤٩) .

(٤٤) المصدر السابق ، ١ : ٢١١ .
 (٤٥) المصدر السابق ، ١ : ١٨٠ .
 (٤٦) المصدر السابق ، ١ : ١٨٤ .
 (٤٧) المصدر السابق ، ١ : ٢٠٥ . وانظر ايضا من ٢٠٦ - ٢٠٨ .
 (٤٨) المصدر السابق ، ١ : ٧٣ - ٨٥ . معجم الادب ، ٨ : ٣٦٥ .
 - ٢٦٧ -

ان انعدام المقدمة الغزلية - النسب - في الشعراء هو مذهب غير تقليدي اوجده «المحدثون» من الشعراء ورغب فيه الكثيرون منذ عصر المتنبي (٥٠) . ومع ان المقدمة الغزلية لم تعد تماما من الشعر العربي ، فان عدم وجودها يدل على المدرسة الشعرية التي انتمى اليها الشاعر .

وكغيره من الشعراء المحدثين مال ابو هلال الى الانتقال التدريجي من غرض لآخر داخل القصيدة . ففي كتاب **الصناعتين** فصل يبحث في «الخروج من النسب الى المدح وغيره» (٥١) اشار فيه المؤلف الى ان الشعراء القدامى خرجوا من معنى لآخر خرجوا مباشرا بواسطة قولهم «فدع ذا وسل الهم عنك بكدا» او «ربما تركوا المعنى الاول وقالوا : وعيس ، او وهو جاء ، وما اشبه ذلك» ، «وربما تركوا المعنى الاول واخذوا في الثاني من غير ان يستعملوا ما ذكرناه» . اما المحدثون فقد اكبوا من الخروج المتصل او من الانتقال التدريجي من غرض لآخر ، وهو انتقال اكثر فنية وشاعرية . وقد اورد ابو هلال عشرات من النماذج لهذا النوع من الانتقال ، منها عدد لا بأس به من شعره هو .

اما المقطع - او نهاية القصيدة - فيجب ان يكون «اجود بيت فيها وادخل في المعنى الذي قصدت له في نظمها» (٥٢) . يتم ذلك بانهاء القصيدة بتشبيه مليح او مثل حسن او حكمة . ومن بين عشرات الامثلة التي يظيها ابو هلال نجد عددا من شعره هو . وتدل قراءة اتبقى من شعره على انه عمل بموجب هذه القاعدة .

ان اطول باب في كتاب **الصناعتين** هو الباب التاسع الذي تناول فيه المؤلف بالبحث تسعة وثلاثين نوعا من انواع البديع ، اخذ تسعة وعشرين منها عن سبقه

(٥١) راجع ص ١١٩ من كتاب :

R. Blachère: Un poète Arabe du IVeme Siècle Phegire
— Abou t-Tayyib al-Motanabbi (Paris, 1935).

(٥١) **الصناعتين** ، ٤٧٤ ، وما بعدها .

(٥٢) المصدر السابق ، ٤٦٤ .

من البلاغيين ، واستشيط عشرة انواع اخرى . وقد كرر ابو هلال في مقدمة هذا الفصل ما قاله ابن المعتز سابقا من ان انواع البديع المختلفة ليست من ابتكار الشعراء المحدثين كما ادعى البعض ، بل كانت معروفة للشعراء القدامى . وأشار الى ان البديع «اذا سلم من التكلف وبريء من العيوب كان في غاية الحسن ونهاية الجودة» (٥٣) . وفي كتاب **الاوائل** يتحدث عن البديع بما يلي :

اول من استخرج اللطيف وعقد المعاني مسلم
ابن الوليد . قال بعضهم : هو اول من افسد
الشعر وجاء بالفن الذي سماه الناس البديع .
ثم جاء بعده الطائي فتحير فيه ، وليس ذلك
عندنا كذلك ، انما تلك طريقة تستطرف .
وكيف يقال لمثل قوله :

اجرت حبل خليع في الصبي غزل
وشمرت هم العذال في عاني

يقول فيها :

موف علي مهج في يوم ذي رهج
كأنه اجل يسمى الى اسل
يكسو السيوف نفوس الناكثين به
ويجعل الهام تيجان التنا الذبل

ولمثل قوله :

تجود بالنفس اذ صن الجواد بها
والجود بالنفس اقصى غاية الجود

وقوله :

واني واسماعيل يوم وداعه
ككالفهد يوم الروع فارقه الفصل
فان اغثن قوما بعده او زوره
فكالحوش يدنيها من الانس المحل

(٥٣) المصدر السابق ، ٢٧٢ .

انه فاسد؟ لا يقول ذلك الا من لا علم له بجواهر الكلام (٥٤) .

يتضح مما تقدم ميل ابي هلال للمحسنات البديعية شريطة ان تخلو من التكلف . وفي بحثه لآبواب البديع المختلفة اقتبس من شعره نماذج لسبعة عشر بابا . ولكن هذا لا يعني بالضرورة ان المحسنات الاخرى غير موجودة في شعره ، بل بالعكس ، اذ تظهر نظرة سريعة الى مقطعاته ان شعره زاخر بالوان البديع كما تدل المقطوعة التالية :

اقول لما لاح من خدره
والليل يرخى الفضل من ستره
ابدره احسن من وجهه
ام وجهه احسن من بدره
قد مالت الرقة في شطره
ومالت الغلظة في شطره
فأزره غصت باردافه
ووشحه جالت على خصره
اصبحت لا ادري وان لم يكن
في الارض شيء انا لم ادره
اشعره احسن من وجهه
ام وجهه احسن من شعره
ودره يؤخذ من لفظه
ام لفظه يؤخذ من دره
وثفره ينظم من عقده
ام عقده ينظم من ثفره
فهن عذير الصب من صده
وهن يجير القلب من هجره
يا ليته يعرف حبي له
عساه يجزيني على قدره (٥٥)

ورغم توالي المحسنات المختلفة ، فلا يشعر القارىء بتكلف او تعقيد ، وهذا ما رمى اليه ابو هلال في استعمال البديع .

اكثر ابو هلال من استعمال التشبيه ، وكثيرا ما شبه اعضاء المحبوب بالحروف الهجائية ، وهي طريقة اتبعها عدد من الشعراء . قال العاملي في ذلك :

واما تشبيه اعضاء الانسان بالحروف فقد اكثر الشعراء من ذلك ، فشبهوا الحاجب بالنون والعين بالعين والصدغ بالواو والفم بالميم والصاد والثنايا بالسين ، والقامة بالالف والطررة بالشين (٥٦) .

وعلى ذلك قال ابو هلال :

قد اتوى صدغه واختط عارضه
كأنه الف من فوقه نون (٥٧)

وقال :

والعيد زين للعيون هلاله
فرمقن منه حاجبا مقروننا
يبدر ويبدو النجم فوق جبينه
وكأن جنح الليل يتقطنوننا (٥٨)

× × ×

ذكرنا سابقا ان ابا هلال كان يتقن فن الكتابة ، ويفتخر بكونه اديبا ، وفيما تبقى من شعره مقطوعات عديدة يصف فيها القلم واثره وفضله على النسيب ، كما يتعرض لفصول السنة فيفضل الشتاء على غيره لان الليل الطويل في هذا الفصل يعطيه فرصة اطول للقراءة والدرس ، وكثيرا ما يصف الكتاب ويفضل صحبته على صحبة الناس ويجعله الملاذ حين يستشعر اليأس منهم . هذه الموضوعات وكثير غيرها نجدها في شعر ابي هلال ، كما نجد فيه كثيرا من شعر الحكمة المعبر عن تجارب الشاعر الخاصة . الا اننا لم نتعرض لكل هذه الاغراض لضيق المجال ، على امل ان نفعل ذلك في دراسة مستفيضة تصدر بها ديوان ابي هلال العسكري ، حين ننتهي من جمعه وتحقيقه .

(٥٦) محمد بن حسين العاملي : كتاب الغلاة (القاهرة ١٣١٧) ، ٢٥٥ .
(٥٧) ديوان المعاني ، ١ : ٢٤٩ .
(٥٨) المصدر السابق ، ١ : ٣٤١ .

(٥٤) كتاب الاوائل - مخطوطات مكتبة حكيم اوغلو ٦٨٩ - السلطمانية
استنبول . ورقة ٢١٨ أ - ٢١٨ ب .
(٥٥) ديوان المعاني ، ١ : ٢٤١ - ٢٤٢ .